التراث المعجمي العربي
بين البدايات و تبلور المناهج المعجمية

أ. محمد عبد ذياب الهيتي*

توطئة

هيأ الله ﷻ للغة العرب ما لم يهيئ لأية لغة أخرى على وجه الأرض، من القداسة والحفظ والرعاية، وأخذها بأسباب التفوق والبلاغة والبروز، واهتمام أبنائها بها، وقد توج ذلك بإنزال أقدس كتاب سماوي، وهو القرآن الكريم الذي شرف اللغة العربية بكونه ناطقاً بها، فقال جل ثناؤه: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:2]، وقوله: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت 3]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل 103].

إن هذا القرآن نزل شاهداً على ثراء هذه اللغة وعلو كعبها بين اللغات، وهذا فيما يبدو، سبب من أسباب السعي الدائب المتواصل من أعداء العرب والإسلام في محاولة الطعن والتجريح والشك في هذه اللغة وليس ذلك بالأمر الخطير بل الأخطر من ذلك أن الذي تولوا كبر هذه المحاولات والذين ورثوهم من ورائهم إنما هم رجال من أبناء

* جامعة 7 أكتوبر.

جلدتنا وينطقون بلغتنا[1].

لقد اتهموا اللغة العربية بأنها لغة مائعة لا تعرف التحديد بسبب كثرة المترادفات فيها[2]، وهؤلاء يحاولون أن ينفذوا من الزوايا الضيقة والثغرات التي يظنون وجودها في اللغة، ولكن الجهل بهذه اللغة وكنهها وأسرارها تارة، أو اتخاذ ذلك وسيلة للهدم تحت عجاج من التعالم والنقد والمنهج وليت شعري أين هذا المنهج؟، وهم يمضون على غير هدى وتثبت فيظنون بها الظنون، وإلا فإن العرب قدماء ومحدثين قد أفاضوا في المسألة، أعني الترادف[3]، مثلما أفاضوا في غيرها، ووضعوا لها القواعد والأحكام التي تضبطها، وجهلهم بهذه الأحكام لا يلغي حقيقة الأمر، إنما غاية هؤلاء ومبعثهم هو الحسد والحقد على العرب ولغتهم وكتابهم، وأنى لهم ذلك، والله تعالى يقول في التنزيل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر 5].

إذن فالعربية كانت على موعد مع هذا التشريف بنزول القرآن الكريم، مما جعل الدراسات العديدة تقوم حول هذا الكتاب المقدس، حتى غدا الواحة التي تجمع حولها طالبو الماء والكلأ من لغة العرب، فلم تقم دراسة في العصور الإسلامية الأولى لا تمس القرآن من قريب أو بعيد، أو كان القرآن الكريم الدافع الكبير في قيام هذه الدراسات المهولة العدد، وقد أصبح معلوماً أنه لولا القرآن الكريم، لما أصبحت أمة العرب من أكثر الأمم تأليفاً.

ولقد درس الكثير من الباحثين واللغويين مختلف الجوانب الهيكلية التنظيمية، وجوانب المادة والمحتوى والمضمون للمصادر الأولى للغتهم، أو ما أصبح يطلق عليها فيما بعد بالمعجمات العربية، التي هي الآن البحر الزخار لكل من يتعامل مع لغة العرب، ولقد تتابعت هذه الدراسات وحقق بعضها نجاحاً بارزاً وأصبح عالم المعجمية عالماً واسعاً رحباً.

وكان للعرب جولات في هذا الميدان الذي يمثل جوهر اللغة بين العلوم الأخرى كالنحو والتصريف والدلالة والبيان والصوت وغيرها، ولئن كانت هذه العلوم يشترك

---

1 - أباطيل وأسمار. محمود محمد شاكر: 12.

2 - ينظر مثلاً دور الكلمة في اللغة. ستيفان أولمان: 15.

3 - للإطلاع على الآراء التي قيلت في الترادف في هذه المسألة وغيرها، ينظر الترادف في اللغة. حاكم الزيادي.

فيها العرب مع غيرهم في التسمية أو المضمون، إن ذلك أدعى لنا بأن نفخر بسبق أجدادنا في هذا الميدان، وهو علم المعجمات وعلوم شأنهم فيه، فهم من الأمم الأولى التي أرست الأسس والمبادئ المعجمية وصنفوا في ذلك كثيراً من مصادر اللغة الأولى وهي المعجمات العربية وفق مناهج متعددة آتت أكلها، ومما أعان على ذلك عامل الزمن والوقت لأن الدراسات ينبغي أن يتوافر لها الوقت الكافي لتختمر وتنتج، وهذا هو الذي حصل مع المعجمية العربية، فإن النتائج الباهرة التي انتهى إليها علماء المعجمية لم تكن في حقيقة الأمر إلا آثاراً لجهود طويلة بطيئة وشاقة ذهبت فيها القوى وأنفقت فيها الأشهر والأعوام، بل القرون حتى استوت على سوقها بل إن من العلماء من انقطعت به أسباب الحياة وهو يبحث عن فكرة معينة أو دلالة معجمية قد تكون صغيرة لكنها كبيرة في عينه، ومنهم من يأتي بعده من العلماء ولا يجد حلاً بعد البحث، وهذا الأمر لا يشمل عالم المعجمية فقط، بل ينطبق على الحياة العقلية كلها، لأن العجلة والإسراف في السرعة هو العدو الأكبر لنتائج العقول، وهو في رأينا الشيء الذي تجاوزه المعجميون العرب لتأنيهم في ذلك منذ البدايات حتى تبلور المعجمات بالصورة التي هي عليها الآن كالعين والصحاح واللسان.

مراحل جمع اللغة وأوائل المعجمات

إن المعجميين العرب الأوائل هم من الذين تأثروا مبكراً بالقرآن الكريم، إن لم نقل إنهم أول من تأثر بهذا الكتاب الكريم، على الرغم من أن صورة المعجم لم تتكامل إلا عند الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ) صاحب كتاب العين[4] على أرجح الآراء، لأن نسبة كتاب العين للخليل ليست قاطعة، والأقوال فيه متعددة وليس محل تفصيلها ههنا. غير أن المؤلفات التي ألفت قبل هذا الكتاب، وهي تتناول شرح الألفاظ يمكن عدها من هذا القبيل، إلا أن طرق تنظيم المعجم على ما ألفناه واصطلح عليه، وسير عليه إلى يومنا، هذا كانت بذرته الأولى وأساسه الراسخ معجم العين.

لقد قسم العلماء لاسيما المعجميين مراحل جمع اللغة وتدوينها على ثلاث مراحل: فالمرحلة الأولى هي مرحلة جمع الكلمات والألفاظ كيفما اتفق[5]، فالعالم أو اللغوي يرحل إلى البادية ويسمع كلمة عن السيف فيدونها وكلمة عن الإبل والمطر

4 - ينظر علم اللغة. محمود السعران: 325.

5 - نفسه: 327.

والخيل وخلق الإنسان وغيرها، يدون هذه بجانب تلك فور سماعه لها تدويناً عشوائياً من دون تنظيم أو تمييز.

أما المرحلة الثانية وهي مرحلة الجمع في الموضوع الواحد فقد شهدت تطوراً ملحوظا، إذ فطن هؤلاء إلى صعوبة الاهتداء إلى كلمة في موضوع معين في مؤلفات المرحلة الأولى، فرتبوا جمعهم وتآليفهم بحسب الموضوعات فكتاب عن السيف، وآخر عن الإبل، وثالث في خلق الإنسان وهكذا.

ويمكن القول إن الكتب التي لها علاقة بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كانت بجانب هذه من أوائل مؤلفات هذه المرحلة، فظهرت الرسائل اللغوية في موضوعات غريب القرآن وغريب الحديث وغريب الفقه واللغات والعامي والمعرب ولحن العامة والهمز والحيوان وكتب النوادر وكتب خلق الإنسان وكتب البلدان والمواضع، وأيضاً كتب الإفراد والتثنية والجمع وغير ذلك[6]. ويعزى إلى ابن عباس (ت 68 هـ) أول كتاب في غريب القرآن، ثم تلاه في ذلك أبو سعيد بن تغلب بن رباح البكري (ت 141 هـ) في هذا النوع من التآليف[7]، أما نظيره غريب الحديث فقد (عزا أكثر الباحثين الكتاب الأول فيه إلى أبي عبيدة معمر بن المثني (ت 210 هـ) تبعاً لابن الأثير)[8] وذهب هذا الأخير إلى أن النضر بن شميل (ت 203 هـ) قد جاء بعد أبي عبيدة في التأليف. وبعد ظهور عدة معجمات لغوية كالعين والتهذيب، جمع أبو عبيد أحمد بن محمد الهروي (ت 410 هـ) بين الحسنيين فألف كتابه الغريبين، وألف الأزهري (ت 370 هـ) كتاب الزاهر في غرائب ألفاظ الإمام الشافعي، ولا يخفى أن أساس معجم المصباح المنير للفيومي (ت 770 هـ) هو شرح الألفاظ الفقهية.

أما في لغات القرآن فنجد ابن عباس ﷺ أول من غرس بذور هذا الفن وقد وصلت إلينا رسالة منسوبة إليه[9] وألف بعده في ذلك مقاتل بن سليمان، والكلبي (ت 204 هـ)، والفراء (203 هـ)، والأصمعي (ت 215 هـ) والسيوطي (ت 911 هـ) فيما بعد. أما في لغات القبائل فينسب إلى يونس بن حبيب (ت 182 هـ) أول كتاب في هذا النوع،

---

6 - ينظر اللغة العربية وعلومها. عمر رضا كحالة: 10.

7 - ينظر المعجم العربي، نشأته وتطوره. حسين نصار: 1 / 39.

8 - المعجم العربي. نصار: 1 / 50.

9 - ينظر المعجم العربي. نصار: 1 / 73.

ثم ألف بعده في ذلك أبو عمرو الشيباني (ت 206 هـ) صاحب كتاب الجيم[10].

وفي الهمز ألف ابن أبي إسحاق الحضرمي (ت 127 هـ)، وتبعه في ذلك من اللغويين محمد بن المستنير الملقب بقطرب (ت 206 هـ)، وفي الحيوان وخلق الإنسان، كان أبو خيرة الأعرابي، وأبو مالك عمرو بن كركرة، فهم من أوائل المؤلفين في هذه الأصناف من التآليف. والنوادر من الموضوعات التي ألف فيها العرب مبكراً نوعاً ما ووصلت إلينا كتب بهذا الاسم (فأول من ينسب إليه كتاب فيها هو أبو عمرو ابن العلاء (ت 157 هـ) شيخ نحاة البصرة ولغوييها)[11]. أما كتب البلدان والمواضع والأماكن فقد كان خلف الأحمر البصري (ت في حدود 180 هـ) أول من ألف فيها[12]. وأما الموضوعات اللغوية المنفردة ككتب الإفراد والتثنية والجمع فقد نسب إلى أبي جعفر الرؤاسي رأس مدرسة الكوفة وأحد معاصري الخليل ينسب إليه أول كتاب في ذلك، ثم ألف الفراء بعده، وفي الأبنية وصل إلينا اسم كتاب كانت وجهته فيما يبدو إلى المصادر، وهو للغوي معروف هو علي بن حمزة الكسائي (ت 189 هـ)، وألف بعضهم في الأفعال والأسماء وبقية الأبنية.

ومن المؤلفات المبكرة للعرب كتب الصفات (وأول من ينسب إليه كتاب من هذا النوع باسم الصفات أبو خيرة الأعرابي ... والمؤلف الثاني القاسم بن معن الكوفي المعاصر للخليل (ت 175 هـ) باسم الغريب المصنف)[13]. وهناك موضوعات أخرى ألف فيها العرب الأوائل لا مجال لذكرها الآن، ويمكن القول إن هذه التآليفات والكتب والرسائل لاسيما المتقدمة منها كانت إرهاصات تأليف المعجمات العربية على الشكل الذي عهدناه من العين إلى تاج العروس ومعها المعجمات الحديثة، على الرغم من أنها عالة على المتقدمة تلك.

معجمات اللغة

لا يذهب الظن إلى أن ما سبق ذكره من الكتب والمؤلفات التي ذكرنا طرفاً منها، ونظائرها التي لم تذكر أنها لا تعد ضمن المعجمات ... لا، فالحق أنها معجمات عامة

10 - ينظر المعجم العربي. نصار: 1 / 78.
11 - المعجم العربي. نصار: 1 / 133.
12 - ينظر المعجم العربي. نصار: 1 / 146.
13 - المعجم العربي. نصار: 1 / 185.

كل بحسب الموضوع الذي تعالجه هذه الكتب، وهي التي قيل عنها إنها معجمات المعاني.

لقد وضع العلماء واللغويون الأحكام والقواعد لما يمكن أن يدخل تحت باب معجمات اللغة أو معجمات الألفاظ، وهو أن تكون الكلمات مرتبة على نمط خاص بشكل يسهل على من أراد أن يعرف معنى كلمة ما في المعجم. وقد رأينا في كتب الموضوعات، أو لنقل معجمات الموضوعات كيف يصعب على الباحث أن يبلغ مراده ومبلغه في موضع معين من هذه المصادر، على أننا نلحظ التدرج في التسهيل الذي صاحب المراحل المعجمية الأولى والثانية، وهذا يستتبع بطبيعة الحال التدرج في التفكير، فالمرحلة الأولى كانت أصعب من الثانية وأكثر بدائية، والثانية أصعب من الثالثة هذه التي بين أيدينا.

إذن نحن بإزاء المرحلة المعجمية الثالثة المتمثلة بظهور معجمات اللغة بصورة منظمة تنظيماً جيداً، لأن من أهداف المعجميين واللغويين المهمة في تقعيد القواعد المعجمية هو التيسير والسهولة للباحث عن كلام العرب أو جزء منه، فكانت المرحلة الأولى، وكان الخليل الفراهيدي قد (وضع - أو الأرجح أنه أوحى بطريقة وضع - أول معجم شامل لمفردات العربية وهو المعروف بالعين)[14]. ثم كان دأب المعجميين هو العمل على تسهيل معجماتهم ومحاولة جذب القارئ إليها، معتمدين في ذلك على عقلياتهم وإمكاناتهم اللغوية ومحاولة تلافي النقود التي وجهت إلى المعجمات السابقة لهم ومحاولة تحليلها والتخلص منها، فضلاً عن الاعتماد على ما جاء في موادها، ومن هذا الاعتبار فحري بنا أن نشير إلى فضل السبق لصاحب معجم العين، وقولنا صاحب معجم العين ليس من باب التجاهل أو الجهل به، بل لأننا لم نفصل القول في نسبته هل هو للخليل أو لغيره، ولأن مدار الأمر هنا منصب على فضل السبق وليس تحقيق نسبته كما سيتم التطرق إليه إيجازاً بُعَيْد الذي نحن فيه، لذلك نقول إنه صاحب فضل السبق، وما بعده من المعجميين هم عالة عليه فالفضل للسابق وإن أبدع اللاحق.

هذا الحديث يعود بنا إلى تعريف المعجم لأنه مدخل مهم إلى قواعد المعجم العربي وأولية تدوينه، هذه القواعد التي ارتضاها أهل اللغة المعجميون العرب، فالمعجم بحسب ما اصطلح عليه عندهم هو أن يُرَتَبَ كتاب على الحروف العربية لشرح معاني

14 - علم اللغة، محمود السعران: 325.

الألفاظ وما يتعلق بها بحسب ما يرتئيه صاحب المعجم إسهاباً أو اختصاراً، وهو آت من عبارة حروف المعجم التي أطلقت على حروف الهجاء العربية، ومعناها الحروف التي يميز بعضها عن بعض بالنقط سواء بنقطة واحدة أو أكثر فوق الحروف أو تحتها. هذا الاصطلاح انتقل إلى ميدان اللغة من الميادين الأخرى فقد نسب إلى حبيش كتاب (الأغاني على حروف المعجم) ونسب لبزرج بن محمد العروضي كتاب (معاني العروض على حروف المعجم)[15].

وهذا الاصطلاح أو الاسم سار مع الكتب تلك منذ بداية التدوين في هذا المجال إلى القرن الثامن أو التاسع حينما أطلق الفيروز أبادي (ت 817 هـ) الاسم الثاني الذي أصبح مرادفاً لاصطلاح المعجم وهو القاموس، أطلقه الفيروز ابادي على معجمه وسماه (القاموس المحيط) ومعناه البحر[16] فهو أراد أن يكون معجمه بحراً محيطاً في اللغة، ثم قدر لقاموس الفيروز ابادي أن يشتهر ويشيع فتشيع معه كلمة (القاموس).

ويرجع معظم الباحثين سبب شيوعها أيضاً إلى الإشكال الصرفي في جمع كلمة (المعجم)، لأن الخلاف ظاهر بيّن في جمع المعجم على (معاجم) فقد خطأ مصطفى جواد هذا الجمع وقال إن الصحيح أن يجمع (معجم) على (معجمات)، أما إذا جمع جمع تكسير فيكون على (معاجيم)[17] في حين أنه لا إشكال في جمع (القاموس) على (قواميس) التي شاعت على الألسنة وتداولها الناس من دون إخلال و(اشتهر هذا الاستعمال حتى أصبح مرادفاً لكلمة معجم لغوي أطلق على جميع المعاجم اللغوية الأخرى المتقدمة والمتأخرة)[18]. وسواء أكانت التسمية معجماً أو قاموساً فهذه لا تؤثر فيما نحن بصدده لذلك لم يلق هذا الاختلاف بالاً كبيراً لأن المهم هو المسمى لا الاسم وهو الذي تصدى له الباحثون اللغويون بالدرس والاستقصاء قديماً أو حديثاً.

عين المدارس المعجمية (العين)

أول أنواع المعجمات اللغوية المرتبة وفق نظام معين وترتيب خاص هو كتاب العين الذي يعد تتويجاً للدراسات والكتب التي سبقته في مجال جمع الألفاظ وشرحها

15 - ينظر المعجم العربي. نصار: 1 / 13.
16 - ينظر القاموس المحيط (ق م س).
17 - ينظر مصطفى جواد وجهوده اللغوية. البكاء: 268.
18 - المعجم العربي. نصار: 1 / 14.

والـتي أشـرنا إلى أوائلها سابقاً، وكتاب العين هذا تعرض لمناقشات جدلية واسعة تقوم على حق وعلى غير حق أكثرها يقوم على الاختلاف في نسبته إلى الخليل الفراهيدي أو عـدم نسبته إليه وهذه المناقشات الجدلية تظهر لنا، فيما تظهره، مدى أهمية هذا الكتاب في عـالم المعجمـية العـربية إلى الحـد الـذي كون مدرسة معجمية قائمة برأسها دعيت مدرسـة العـين والـتي نعـدها عـين المدارس والمعجمات التي جاءت بعده واستقت من العين ضروباً من العلوم المختلفة والمنهج أيضاً.

واختلف في هذه النسبة المتقدمون وناقش ذلك المتأخرون فبين مثبت أنه للخليل وبـين منكـر لـه تشـتت الآراء، ولأن هـذا الـبحث لـيس مظـنة لحشد آراء هؤلاء وهؤلاء وأولـئك ومناقشتها إجمالاً وتفصيلاً فإننا نكتفي بذكر أهم من قال فيه رأياً فطائفة تنكر أن يكـون العـين للخلـيل ويقـف على رأس هذه الطائفة النضر بن شميل (ت 204 هـ) وطائفـة تثبت أن العـين للخلـيل وأشهر من قال بذلك المبرد (ت 285 هـ) وابن فارس (ت 395 هـ) ذكر ذلك في مقدمة كتابه مقاييس اللغة[19].

أما الطائفة الثالثة فهي بين الإنكار والإثبات ومن هؤلاء ثعلب (ت 129 هـ) الذي قال إن الخليل رسمه ولم يحشه وأن التحشية ظهرت بعده لا سيما ظهور أسماء لغويين ونحويين متأخرين عنه والمرجح في ذلك أنها بفعل الناسخين الذين نسخوا الكتاب مع التعلـيقات والحواشـي والهوامش من أولئك على نسخ الكتاب ثم نسخ الكتاب بحواشيه علـى أنهـا مـن الكتاب ومعها أسماء أصحابها فاختلط ما هو أصيل بما هو دخيل حتى وصل إلينا وإلى غيرنا على هذه الظروف المثيرة للشك ويبدو أن هذا الرأي هو الأقرب إلى المعقول والأبعد عن التطرف لاسيما رفض نسبة الكتاب البتة كما صرح بذلك الأب أنسـتاس الكرملـي وقـال إنـه لـليث بن سيار[20]. إن هذا الرأي الذي ذكرناه لا يمثل إلا جانباً من آراء اللغويين واختلافهم في نسبة الكتاب للخليل أو لغيره وقد فصل القول في ذلك كثيرون وناقش بعضهم الآراء[21].

---

19 - مقاييس اللغة. ابن فارس: 1 / 3 - 4.

20 - المعجـم العـربية مـع اعتـناء خاص بمعجم العين. عبد الله درويش: 83، فقد نقل هذا الأخير عنوان الكتاب الذي وجده الكرملي وهو نسخة من كتاب العين وصرح بأنه لليث بن سيار.

21 - للإطلاع على هذه الآراء ومناقشتها ينظر المعجم العربي. نصار: 1 / 154، وينظر المعاجم العربية مـع اعتـناء خـاص بمعجـم العـين. درويـش: 47 فمـا بعـدها، وبنظـر مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، (م16) (ع9): 424 - 426.

والحق فإن الباحثين ما كان لهم أن يقوموا بذلك لولا الأهمية البالغة لهذا الكتاب ذلك أنه يمثل الأساس الذي استندت إليه المعجمات اللغوية فيما بعد. لكنه كما يقول يوسف العش[22]: (ظل منبوذاً محسوداً يساعد على انتشار العربية دون أن يظهر وإذا بالمعاجم تنمو وإذا باللغة العربية تضبط ضبطاً ما كان ليتهيأ لها لولا الخليل بن أحمد).

وعلى الرغم من كل الآراء المتضاربة التي يحاول المحدثون ردها إلى الرأي الذي ينجو من كل اعتراض وجيه وهو الإقرار بأن الخطة والمنهج للخليل وجزء من الكتاب[23]، فإن الذي يلوح لنا أن هؤلاء في قرارة أنفسهم يريدون رد العين للخليل صراحة غير أن ما يثلب ذلك هي تلك الآراء والاعتراضات التي أشرنا إلى طرف منها، وهم يفعلون، كما نفعل نحن أيضاً، بالقول: إن العين للخليل إما تجوزاً أو تغليباً فالباحث المبتدئ منذ أن يلج ميدان اللغة يعلم جيداً أن الخليل بن أحمد هو مؤلف العين بعيداً عن تكلم الآراء والاعتراضات والشكوك والتي يحمل بعضها من الأدلة أقواها، وعلى ذلك يمكن القول في أول مصادر الدراسة اللغوية وأسبقها إنه للخليل بعيداً عن كل ما قيل ويقال وبعيداً عن التفاصيل الجزئية التي تحمل التخليط واضطراب مما ولد مشكلة كبيرة في عالم اللغة والمعجميات ربما توازي مشكلة كتاب سيبويه (ت 180 هـ) فعلى الرغم من كل الاعتراضات التي تطرح من آن لآخر حول سيبويه وكتابه ونسبة هذا الكتاب له وهي اعتراضات تبدو مقنعة أحياناً لكن ذلك لم يصل إلى الشك في نسبة الكتاب إلى سيبويه فهو مازال له بكل قوة تغليباً أو ترجيحاً وربما تظهر لنا قوادم الأيام خلاف ذلك بالأدلة والبراهين التي لا يعتريها الشك ولا يشوبها الضعف.

لقد أثّر العين بصفته المصدر الأول والمعجم العربي الأول في جميع المعجمات التي تلته، وكوّن مدرسة تندرج تحتها معجمات كثيرة منها البارع لأبي علي القالي (ت 356 هـ)، و(تهذيب اللغة) للأزهري (ت 370 هـ) وكذلك (المحكم) لابن سيده (ت 458 هـ) و(المحيط) للصاحب بن عباد (ت 385 هـ) فهذه « تأثرت جميعها بخطته والتزمت بعض المعاجم منهجه بحذافيره مع بعض إصلاحات طفيفة في التفاصيل والجزئيات »[24].

---

22 - مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (م16) (ع12): 553.

23 - ينظر مشكلات في التأليف اللغوي. رشيد العبيدي: 216 - 217.

24 - المعجم العربي. نصار: 1 / 271.

والـرأي الأكيد أن معجم العين الذي هو من أوائل مصادر الدراسة اللغوية بل هو الأول مـثلما أقـر ذلـك اللغـويين، يجب - كما هو كذلك - أن ينال المرتبة العليا لأنه كـان سـابقاً وجـاء بـنظام وترتيب رائعين أطراه المتقدمون والمتأخرون واتخذوه مصدراً مهمـاً مـن مصـادرهم يعـودون إلـيه دائمـاً، ومـا شدة الاختلاف فيه إلا تأكيد آخر على أهميـته، علـى الـرغم ممـا لاقاه من الصعاب وسوء الحظ مما لم تلقه المؤلفات العربية الأخرى كما يقول عبد الله درويش في مقدمة كتابه[25] وقد يبدو هذا الأمر طبيعياً لكونه المصدر الأول.

لكـن يبقـى العـين الحلقـة الأولى والمهمـة مـن حلقـات المعجمـية العربية التي ترسـخت علـى يـد أسـتاذها الأول الخليل بن أحمد الفراهيدي وأن (اللغة العربية مدينة لهمـا مـا شـاء الله أن تعـيش وسـتحيا طـويلاً)[26] وقـوله (لهما) يقصد الخليل والليث، والكـلام ليوسـف العـش لأن الـرأي عـنده والذي ينجو من كل اعتراض وجيه، هو قول الطائفة التي ترى أن الخليل وضع النهج والخطة، وأن الليث هو الذي حشاه.

نظرة في المدارس المعجمية بعد العين

علـى الـرغم مـن تفاوت الآماد بين المعجمات العربية فبين العين وتاج العروس مـثلاً أكثـر مـن عشـرة قرون، إلا أن ذلك لم يمنع اللغويين من النظر إلى تاج العروس علـى أنـه من أهم المصادر اللغوية، ومثله لسان العرب أو القاموس المحيط وغيرها من الكـتب اللغـوية المتأخـرة زمـناً بعـد العـين، وتأسيسـاً على ذلك فلا بد من معرفة هذه المصادر التي بقيت منذ تألفيها وإلى الآن، المنهل الذي استقى منه اللغويون وغيرهم كل مـا يـتعلق بمجـال عملـهم، وإذ جعـل اللغويـون والمعجمـيون العـين رأس المدرسـة المعجمية الأولى فقد جرى على ذلك تقسيم المدارس المعجمية التي تمثل مصادر مهمة مـن مصـادر الدراسـة اللغوية كلاً على حدة وإنما هذا التقسيم هو من مقتضيات الدراسة المعجمية.

المدرسة الثانية

وتضم المدرسة الثانية مصادر معجمية ثلاثة، أحدها لابن دريد (ت 321 هـ) هو

25 - ينظر المعاجم العربية. درويش: الصفحة (ج) من المقدمة.
26 - مجلة المجمع العلمي بدمشق (م16) (ع12): 554.

جمهـرة اللغـة، واثـنين لابـن فارس (ت 395 هـ) هما المجمل والمقاييس فـ (من مشاهير كتب اللغة التي نسجت على منوال العين كتاب الجمهرة لأبي بكر بن دريد قال في خطبته: قـد ألـف أبـو عـبد الرحمن الخليل بن أحمد ﷺ كتاب العين فأتعب من تصدى له لغايته وعنـى مـن سمـا لنهايـته، وأملينـا هـذا الكـتاب، والـنقص في الناس فاش، وسميناه كتاب الجمهرة لأنا اخترنا له الجمهور من كلاب العرب وأرجأنا الوحشي والمستنكر)[27].

يلاحـظ مـن قـول ابـن دريـد أنه أهمل الوحشي واختار من كلام العرب الواضح الشـائع لأن الجمهـور هـو الشـائع المسـتعمل في حين جمع الخليل الواضح والغريب، وتتميز الجمهرة بالإكثار من لغات العرب والمعرب والدخيل أما صيغه فهو الثنائي وما يلحـق به والثلاثي وما يلحق به، وكذلك الرباعي والخماسي، وقد أُخذت على الجمهرة مآخـذ عدة أعمها اضطرابه الشديد في طريقة عرضه أو اضطرابه الشديد في المنهج حتى وصـف بأنـه أكثر المعجمات العربية اضطرابا[28]. أما معجما ابن فارس، وهما المجمل والمقاييـس فقـد رَمَـى مـن تألـيف الثانـي إلى هـدف محـدد هو معرفة المعنى الأصلي المشـترك للمـواد، فقـال في مقدمـة مقاييـس اللغـة: (إن للغـة العـرب مقاييس صحيحة وأصولاً تتفرع منها فروع وقد ألف الناس في جوامع اللغة ما ألفوا ولم يعربوا في شيء من ذلك عن مقياس من تلك المقاييس ولا أصل من تلك الأصول)[29].

أمـا المجمـل، فكـان كـالعين والجمهـرة في انـتمائه إلى جمع اللغة على طريقة المعجمـات، لكـنه خالـف الاثـنين في أنـه لم يسـتكثر من الألفاظ والشواهد، بل أراد أن يحمـل، كمـا يظهـر مـن اسمـه، لكـي يسـيطر علـى مادتـه، لأنه أدرك ما في الكثرة من اضـطراب. إذن (فالجمهـرة تقسم بحسب الأبنية أولاً ثم يقسم كل بناء إلى الحروف أما المقاييـس والمجمـل فيقسـمان وفقاً للحروف ثم يقسم كل حرف إلى أبنية، والأبنية في الجمهـرة كـثيرة مخـتلطة، وعند ابن فارس قليلة محكمة والجمهرة تراعي التقاليب وابن فارس يطرح ذلك من معجميه وابن دريد لا هدف في معجمه إلا الجمع كبقية أصحاب المعاجم أما ابن فارس فله هدف خاص في معجميه)[30].

---

27 - المزهر في علوم اللغة وأنواعها. السيوطي: 1 / 92.

28 - فصّل في هذه المآخذ حسين نصار في كتابه المعجم العربي، نشأته وتطوره: 2 / 396 - 399.

29 - مقاييس اللغة. 1 / 3.

30 - المعجم العربي. نصار: 2 / 444.

المدرسة الثالثة

جاء الجوهري (ت في حدود 400 هـ) بنظام معجمي جديد وفريد، أكسب هذه المدرسة ميزتها الخاصة بما يمكن أن يطلق عليها مدرسة معجمية، فمعجماتها من أشد المعجمات تميزاً ووضوحاً، بوصفها مدرسة مستقلة مع التحفظ من هذا اللفظ (المدرسة)، لأن بعض الباحثين لا يرون فيما كان مدرسة، إنما هي جهود علمية، وهذا يشمل علوم اللغة ولاسيما أعمدتها كالنحو عند المدرسة البصرية والكوفية والبغدادية والشامية والمصرية والأندلسية وهكذا. هذا النظام المبتكر الجديد هو نظام أواخر الكلمات أو نظام التقنية، إذ اعتمد الجوهري على أواخر الكلمات لترتيب مواده ويسمى نظام الباب والفصل، إذ يعد الحرف الأخير بعد اطراح الزوائد باباً والحرف الأول فصلاً، بحيث تبدأ الأبواب من الهمزة وفقاً للترتيب الألفبائي، وقد علل بعض الباحثين هذا النظام بسبب شيوع السجع وحاجة الأدباء للكلمات المتحدة الأواخر والنهايات، بعد غلبة الأعاجم على الشعر[31].

والحق أن هذا التعليل يندفع بالقول إن السجع كان موجوداً عند العرب منذ عصر ما قبل الإسلام شعراً ونثراً نوعاً ما، كما أنه شاع في عصور الانحطاط، ثم إن الأدباء والشعراء لا يصطنعون أدبهم وشعرهم اصطناعاً حتى إنهم يبحثون عن الألفاظ المسجوعة في معجمات من هذا النوع، لكنه يأتي عن سجية وفطرة، لاسيما الشعر، إذ ينثال انثيالاً على لسان الشاعر.

ويرى بعض الباحثين أن الجوهري بهذا النظام لم يكن مبتدعاً في ذلك وأن مراعاة قوافي الكلمات، إنما هو مأخوذ من كتاب التقفية للبندنيجي (ت 284 هـ)، وحتى حشو الكلمات مأخوذ من خال الجوهري نسباً، وهو الفارابي (ت 350 هـ) من كتابه ديوان الأدب المفقود لدينا[32].

فيما يرى آخرون أن الجوهري قد رُمِي بشبهتين الأولى تتعلق بالنظام الذي قيل إنه قد ابتكره، وهي اتهامه بسرقة ذلك من البندنيجي صاحب كتاب التقفية وهو حشد

---

31 - من هؤلاء حسين نصار في كتابه المعجم العربي: 1 / 176.

32 - ينظر منهج الصحاح بين الإبداع والاتباع د. محمد علي الرديني بحث منشور في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية / جامعة ناصر. (ع1) 2001م.

الكلمـات المتحدة الأواخر من دون أي اعتبار آخر، وقد حققه الدكتور خليل العطية[33]، ولكن يمكن القول إن منهجي الكتابين مختلفان لذلك قيل إنها شبهة.

أمـا الشـبهة الثانية فهي تشبه الأولى، وهي تتعلق أيضاً بنظام أواخر الكلمات وأنه قـد (اسـتفاد مـنه الجوهـري ابـن أخـت الفارابي في صحاحه، واشتهر بأنه مبتكره، وهي غلطـة شـائعة يجب تصحيحها)[34]، والفارابي هذا هو إسحاق بن إبراهيم (ت 350 هـ) الـذي ألـف كـتاباً، وضـع فـيه الألفـاظ المنتهـية بحرف واحد معين الواحدة مع الأخرى باعتـبار هـذا الحـرف، سـواء أكانت اسماً أم فعلاً أم وصفاً، وسمى كتابه (ديوان الأدب)، ويمكـن القـول إن الجوهري قد أفاد من فكرة خاله الفارابي وطورها، بما نتج عن ذلك أسـاس مدرسـة معجمية ذات نظام مبتدع، سارت عليه أكبر المعجمات العربية وأصحها كـ(الصـحاح) للجوهـري، الـذي مـر ذكره، و(العباب) للصاغاني (ت 650هـ)، و(لسان العرب) لابن منظور (ت711هـ)، و(القاموس المحيط) للفيروز أبادي (ت817هـ)، و(تاج العروس من جواهر القاموس) للسيد محمد مرتضى الزبيدي (ت1205هـ).

ولقـد لقـيت هـذه المعجمات شهرة كبيرة في تاريخ المعجمية العربية، واعتمدت علـى نظـام الـباب والفصـل كمـا سـبق، غير أن لكل منها ميزات خاصة على الرغم من انـتمائها لمدرسـة واحـدة، (إذ يلتـزم الصـحاح الألفـاظ الصـحيحة وحدها وتغلب عليه الصـبغة الـنحوية الصرفية وتغلب على العباب الصبغة الأدبية والعناية بالشواهد الشعرية ويلتـزم القامـوس الاختصار والاستقصاء، وتغلب عليه الصبغة الطبية، ويكثر من الأعلام وخاصـة أعـلام المحدثين والأماكن والمصطلحات، ويغلب على اللسان والتاج الإسهاب والإطـناب، مع اقتصار الأول على المواد اللغوية تقريباً، وانفتاح رقعة الثاني إلى ما ضمه أصله القاموس وما زاده هو، فالتاج خليط من دوائر المعارف والمعجمات اللغوية)[35].

المدرسة الأخيرة:

إن الترتـيب الألفبائـي سـار مع العرب منذ أقدم العصور لاسيما الإسلامية، فتارة يهمل المؤلفات، وأخرى يستعان ببعض منه، وثالثة يعاد إليه كلية غير أنه من المؤكد أن المـتعلم أول ما يفتح عينيه على اللغة ومبادئها يحفظ الحروف العربية على هذا الترتيب

33 - التقفية في اللغة. البندنيجي. تحقيق: د. خليل إبراهيم العطية.
34 - المعجم العربي. نصار: 1 / 176.
35 - المعجم العربي. نصار: 1 / 651.

أو نظيره الأبجدي بصورة أقل، وهذا ما يحصل الآن، فالترتيب الألفبائي هو الأساس، وفي المعجمات العربية لا يمكن القول إن هناك مدرسة التزمت هذا الترتيب مدة زمنية متواصلة، فالشيباني (ت 220هـ) في الجيم قد (قسم الكتاب إلى أبواب قصر كل واحد منها على حرف من حروف الهجاء واتبع في ترتيبها الطريقة المألوفة التي لا نزال نسير عليها اليوم)[36].

والجيم يعد المعجم الثاني بعد العين، ثم نجد بعد قرون عديدة وبعد شيوع نظام الباب والفصل، أن الزمخشري (ت 538هـ) يسير عليه في أساس البلاغة، والفيومي (ت 770هـ) في المصباح المنير، إذ يعتمدان على الترتيب الهجائي ويأخذان في الاعتبار الحرف الأول والثاني والثالث، كما أننا واجدون بعد تاج العروس المؤلف على نظام الباب والفصل، أن المعجمات التي تلته لا سيما معجمات سارت على نظام الهجائي، لأنه الأقرب إلى مدارك الطلبة واعتيادهم على هذا النظام، ومن ذلك معجم سعيد الخوري الشرتوني (أقرب الموارد في الفصيح والشوارد)، وأخرج الأب لويس معلوف معجم (المنجد) عام 1908م، وألف البستاني معجم (البستان) عام 1930م، وألف المرحوم أحمد رضا معجم (متن اللغة) عام 1958م[37].

وهناك معجمات أخرى فضلا عن هذه، مثل (محيط المحيط) و(قطر المحيط) وغيرها الكثير، مما لا يحده تعداد في عجالتنا هذه، وعلى الرغم من أن هذه المدرسة تمثل خليطا من عدة اتجاهات لا سيما الحديثة منها، إلا أن الجامع المشترك بينها هو الترتيب السهل والمنطقي، ويبدو أن هذا هو السبب الذي حدا بالمعجميين إلى تحاشي اتباع المناهج الأخرى، منذ ما بعد تاج العروس ولحد الآن، إذ التزموا هذا الترتيب.

إن ترتيب المدارس المعجمية هذا لا يعد قاطعا، لأن العلماء والباحثين في مجال المعجمية العربية قد تعددت آراؤهم في تقسيم المعجمات إلى مدارس حتى قيل: إن كل معجم هو مدرسة بحد ذاتها، غير أننا واجدون أن أفضلها تقسيما وأحسنها نظاماً، وهو مبدع به، هو تقسيم حسين نصار في كتابه (المعجم العربي)، فارتأينا السير على خطوطه العامة.

ولا بد أن نشير هنا إلى أن مصطلح المدرسة قد لا ينطبق على كل ما قلناه، ولا

---

36 - المصدر السابق: 1 / 80.

37 - ينظر المعجم العربي بين الماضي. عدنان الخطيب: 52 - 53.

سيما أن خصائص المدرسة يجب أن تحدد بصورة واضحة، والقول بوجود مدارس معجمية، إنما هو من قبيل الوصف لا التحديد، الوصف بأن عدداً من المعجمات تنتمي إلى فئة معينة وقد أطلق على هذه الفئة مدرسة، وهذه ربما تشبه القول بوجود مدارس نحوية كمدرسة البصرة والكوفة وبغداد وهلم جراً، من غير تحديد لخصائص هذه المدرسة وأسسها، والْمَظْنون أن إطلاق اسم المدرسة هنا إنما هو من باب التغليب، أو محاولة جمع الآراء تحت فئة معينة واحدة كالبصريين والكوفيين، وكذلك القول بوجود مدارس معجمية.

إن عالم المعجمية عالم واسع من الصعب أن يحاط به، وما هذا الذي قلناه هنا إلا تعريف مختصر عن هذا الخضم الهائل، والتراث الضخم الذي خلفه لنا أجدادنا، فغدا لنا مصدر لغوياً ثرياً كما ونوعاً، والمعجمات العربية أصبحت من أهم المصادر اللغوية، بجانب كونها تمثل مؤلفات تتعامل مع الدلالات والمعاني وشرح الألفاظ ولكنها تتفاوت في ذلك تفاوتاً ملحوظاً، كما سبق أن بينا بصورة مقتضبة.

الخلاصة

عرضنا فيما مضى جانبا مهما من علوم العربية المختلفة وهو علم المعجمية العربية التي تمثل أهم اللغة العربية وهو بجانب ذلك علم جليل خطير يجمع أصنافاً من فروع اللغة والنحو والتصريف وغيرها.

والعرب من الأمم السابقة إلى تأسيس أركان ثابتة لهذا العلم لاسيما بعد نزول القرآن الكريم، فبدأت رحلة المعجمية العربية منذ القرن الثاني الهجري ومازالت مستمرة، فقد بدأ الخليل الرحلة بمعجم العين الذي دارت حوله الشكوك، وألف العرب بعد العين معجمات من أنفس كتب التراث العربي الذي ورثناه، فالجمهرة والمجمل والمقاييس والصحاح والعباب وأساس البلاغة ولسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس وغيرها، كلها معجمات يحق لنا نحن العرب أن نفخر بها وندرسها بعناية، لأن فيها من الكنوز ما لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم.

إن من الثابت المسَلَّم به أن نزول القرآن الكريم كان الدافع الرئيس لقيام الدراسات اللغوية التي تمثل المصادر اللغوية المهمة، وكان أن مرت اللغة في جمعها بمراحل تطورت شيئاً فشيئاً، فالمرحلة الأولى كانت جمعا عشوائياً إذ يكتب اللغوي كل ما يسمع وهذا مما ولد اضطرابا، فيما يبدو، في الإفادة من المادة اللغوية هدت لغويي

المـرحلة الثانـية، لأن يجعلوا عملهم أكثر تنظيما، تم تدوين اللغة بحسب الموضوعات، وفي هـذا الـوقت وبعـده ظهـرت المـدونات التي يمكن أن تعد على أنها من معجمات المعانـي، ككـتب غـريب القـرآن وغريب الحديث وخلق الإنسان والإبل وما شابه ذلك، ويمكـن القـول إن هـذه المؤلفات كانت إرهاصات تأليف المعجمات على الشكل الذي عهدناه، من العين إلى تاج العروس بل إلى يومنا هذا.

بعد ذلك كانت المرحلة الثالثة التي تعد أهم مرحلة، إذ تبلور منهج جامعي اللغة وتوج ذلك بظهور منهج الخليل في العين الذي يعد أهم وأول مصدر لغوي اكتسب صفة المعجم بمعناه المعهود، وأفاد منه كل من جاء بعده وله فضل السبق على الرغم من كل مـا قيل ويقال بشأن نسبة الكتاب إلى الخليل، وقد عرضنا من الآراء وهي في مجموعها بـين الإثـبات للخلـيل والـرفض والإنكـار، وطائفـة ثالثة تقف موقفا وسطا بين الأمرين، ولكل وجهة نظره ودلائله التي يتمسك بها.

وإن كـنا نمـيل إلى الطائفـة الثالـثة المتوسـطة الـتي تـرى أن المنهج للخليل وأن التحشـية ظهـرت بعـده، ولكـن علـى الـرغم مـن ذلـك كله يبقى العين مصدرا من أهم المصـادر اللغـوية، ولا نـبالغ إذا قلنا إنه عين المصادر اللغوية والمعجمات العربية، وإنه المصـدر الأول والمعجـم العربـي الأول في جمـيع المعجمـات التي تلته، وكوّن مدرسة معجمـية وإن كان مصطلح المدرسة غير مناسب عند بعض الدارسين، لكنه في رأينا من قبـيل الوصف لمصادر مختلفة يجمعها رابط معين في الشكل أو المضمون، وهو الحلقة الأولى من حلقات المعجمية العربية.

والقـول بـأن العين كوّن مدرسة معجمية يقتضي وجود مدارس أخرى أفادت من العـين مـنهجا ومحـتوى، وطورت ذلك باتجاهات عديدة، فالمدرسة الثانية تضم جمهرة ابن دريد ومجمل ابن فارس ومقاييسه، والثالثة تضم صحاح الجوهري وعباب الصاغاني ولسان العرب لابن منظور والقاموس المحيط للفيروز آبادي وتاج العروس للزبيدي.

وهـذه الفـئة أو المدرسـة مـن أشد الفئات تميزاً ووضوحاً، فضلا عن أنها ضمت أكابـر المعجمات العربية حجما كاللسان والتاج، فيما تميزت المدرسة الأخيرة بالترتيب الألفبائـي، وهـو ترتيب لازَمَ المصادر العربية منذ وقت مبكر، إذ نجده عند الشيباني في الجيم لكنه كان يهمل ثم يعاد إليه، وأكثر المعجمات الحديثة تسير وفق نظامه.

إن تـرتيب المـدارس المعجمـية هـذا قـد قـال به د. حسين نصار، وهو ترتيب لا

يخلـو من ابتداع وصحة، لكنه ليس ملزما لأن لكل باحث وجهة نظره حتى عد بعضهم كـل معجـم مدرسـة، ولكنـنا نرى أن هذا التقسيم خليق بأن يؤخذ وأن يرتضى لطرافته، فضلاً عن أن سعة عالم المعجمية يجعل من العسير أن تدرس المعجمات فرادى.

المصادر والمراجع

- أباطيل وأسماء. محمود محمد شاكر. مطبعة المدني - القاهرة. ط2. 1972 م.
- الترادف في اللغة. حاكم مالك الزيادي. دار الحرية - بغداد 1980 م.
- التقفية في اللغة. البندنيجي (ت284 هـ). تحقيق: د. خليل إبراهيم العطية. طبع وزارة الأوقاف - بغداد 1976م.
- دور الكلمة في اللغة. ستيفان أولمان. ترجمة: كمال محمد بشر. المطبعة العثمانية. مكتبة الشباب. ط3 1972م.
- علم اللغة. د. محمود السعران. دار النهضة العربية - بيروت.
- القاموس المحيط. الفيروز أبادي (ت817 هـ). دار المعرفة - بيروت.
- اللغة العربية وعلومها. عمر رضا كحالة. المطبعة التعاونية. دمشق 1971 م.
- مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ناصر - ليبيا. العدد الأول. السنة الأولى. منهج الصحاح بين الإبداع والإتباع. بحث للدكتور محمد علي الرديني.
- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. مجلد (16) العدد (9 - 12) السنة 1941 م. أولية تدوين المعاجم العربية. مقال ليوسف العش.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها. السيوطي (ت 911هـ). تحقيق: محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي. دار إحياء الكتب العربية - القاهرة. الطبعة الرابعة 1958م.
- مشكلات في التأليف اللغوي في القرن الثاني الهجري. د. رشيد العبيدي. دار الجاحظ - بغداد 1981م.
- مصطفى جواد وجهوده اللغوية. محمد عبد المطلب البكاء. دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد. الطبعة الثانية 1978م.
- مقاييس اللغة. أحمد بن فارس (ت395هـ). تحقيق: عبد السلام هارون. دار الفكر - بيروت 1979م.
- المعاجم العربية مع اعتناء خاص بمعجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي. عبد الله درويش. مطبعة الرسالة - مصر 1956م.
- المعجم العربي بين الماضي والحاضر. عدنان الخطيب. مطبعة النهضة العربية - القاهرة 1967م.
- المعجم العربي، نشأته وتطوره. د. حسين نصار. دار الكتاب العربي - مصر 1956م.